حول البردة

للاستاذ محمد سيد كيلانى

إذا ألقينا نظرة على المدائح النبوية عند البوصيرى وجدناها تنقسم إلى قسمين : قسم نظمه قبل أداء فريضة الحج ، وقسم قاله بعد أداء هذه الفريضة . ولكل قسم مميزات خاصة . وسنقدم الكلام على القسم الأول ، ثم نتبعه بالقسم الثانى .

القسم الأول ، قبل الحج

إن أداء فريضة الحج من أكبر الأمانى التى تجول بخاطر المسلم . وقد عاش البوصيرى طوال حياته فى بلبيس يحن إلى زيارة قبر الرسول ويشتاق إلى رؤية الأماكن المقدسة . وقد أعرب عن تلك الأمنية فى قصائده التى نظمها فى مدح الرسول قبل أن تتهيأ له أسباب الرحلة إلى الحجاز . فى إحدى هذه القصائد يقول :

فهب لى رسول الله قرب مودة تقر به عين وتروى به كبد
وإنى لأرجو أن يقربنى إلى جنابك ارتال الركائب والوخد

ولما عزم على أداء فريضة الحج قال فى قصيدته التى رد بها على النصارى واليهود :

فلا قطعن حبال تسويفى التى منعت سواى إلى حماه وصولا

* * *

نظم البوصيرى قصائد أربعة فى مدح الرسول قبل ذهابه إلى الحجاز : وهى القصيدة الدالية وسماها « ذخر المعاد على وزن بانت سعاد » . والقصيدة الخائية . والقصيدة اللامية الثانية وسماها « المخرج والمردود على النصارى واليهود »

وامتاز هذا القسم بخلوه من الغزل والتشبيب بالأماكن الحجازية كسلع ورامة وذى سلم وغيرها . فكان يبدأ بالمدح رأسا كما فى قصيدته الخائية ، أو بالوعظ والإرشاد كما فى قصيدته ذخر المعاد ، أو باظهار الأسى والحزن على ما أصاب المسجد النبوى من فعل النار ، أو بمهاجمة النصرانية واليهودية كما فى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود »

القسم الثانى

ا — فى الطريق إلى الحجاز :

صحت نية البوصيرى على أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول وقطع حبال التردد والتسويف ، وسمحت له الأقدار التى حالت بينه وبين أمنيته الكبرى مدو من الزمن . أجل ! لقد شد الرجل رحاله وامتطى ظهر العيس التى سارت به تقطع البيد سهولا وحزونا . وقد نظم وهو فى طريقه إلى الأماكن المقدسة قصيدة مطلعها :

سارت العيس يرجعن الحنينا ويجاذبن من الشوق البرينا
داميات من حفى أخفافهـا تقطع البيد سهولا وحزونا

بدأ الشاعر هذه القصيدة بذكر الأحبة والديار وتخلص من ذلك إلى مدح الرسول وهى ستون بيتا .

فى الوجود .

وإذا افتخر أصحاب الأبراج العاجية بأنوفهم قائلين « الأديب مطبوع لا مصنوع » فليس يعيب التربية الأدبية أن تعمل جاهدة على تربية الذوق وصقل الوجدان وتزكية العاطفة ، وتنمية الملكة فضلا عن شغل الفراغ بما يبعث فى النفوس كل شعور بالطموح ، متى ساهم الفرد بقلمه ولسانه فى أى أثر أدبى يستوجب التقدير والإكبار ، وأيا ما كان فإنه سيظل مخلصا للادب يتذوقه وينتجه

وما أشبه الانسان بعربة يجرها جوادان أحدهما أسود والآخر أبيض فلا بد من حوذى ماهر يوفق بينهما ، ذلك هو القلب الذى يستجيب للجمال فى الموسيقى والغناء ، والرواء الباهر ، والانسجام للنهم ، والتقاسيم الرائعة فى بلد كل ما فيه يوحى بالأدب عامة ، والشعر خاصة وهو فن الفنون .

وإذا ألمت بالمرء محنة كان لا بد له أن يتنفس وإلا انفجر المرجل ، وليس غير الأدب هنا متنفسا يؤمن معه « صمام الأمن » وسرعان ما تستحيل غريزة المقاتلة إلى أثر أدبى ، فتهدأ العاصفة وتصفو الوجوه بعد الوجوم ، كما أن الكبت إذا طال تسرب إلى كهوف الظلام ، وأوغل فى أوكار الفساد ، ومن هنا تتداعى الانفعالات الوجدانية فى صور رمزية فيها لصاحبها سلوان ، وللشركاء ترضية وترفيه ، وعلى ألسنة الطير والحيوان والأفلاك والأسماك متسع للجميع .

محمد محمود زيتون

(ب) فى حضرة الرسول :

ولما وقف البوصيرى أمام الضريح النبوى أنشد قصيدة مطلعها:

وافاك بالذنب العظيم المذنب خجلا يعنف نفسه ويؤنب

وأخذ الشاعر يبكى ويستغفر ويتضرع ويتوسل وقد أطال الوقوف أمام باب الرسول ، قال :

وقفت بجاه المصطفى آماله فكأنه بذنوبه يتقرب

وبدا له أن الوقوف ببابه باب لغفران الذنوب مجرب

ثم انتقل إلى المدح وختمها بأبيات فى الأستغاثة بالله أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأن يجعل الجنة مقره ومثواه .

(ج) فى طريق العودة :

فرغ البوصيرى من أداء فريضة الحج فأرضى نفسه بالسعى والطواف ، ومتع ناظريه برؤية الضريح النبوى، وأطال الوقوف أمام أبواب الرسول ، وأخيراً حزم أمتعته وشد الركاب وأمتطى بعيره وسار قادماً إلى مصر . وقد نظم وهو فى طريق العودة قصيدة مطلعها :

ازمعوا البين وشدوا الركابا فاطلب الصبر وخل العتابا

وأخذ يتغزل فى سلمى ويذكر أشواقه إليها ويصف جمالها ومحاسنها . ولكنه أفرط فى هذا الغزل وخرج به عن حدود الأدب الواجب فى هذا المقام أعنى مقام مدح الرسول . ومثال ذلك قوله :

سمحت لثم الثنايا فقالت إن من دونك سبلا صعابا

حرست عقرب صدغى خدى وحمت حية شعرى الرضابا

ويح من يطلب من وجنتى الـ ـورد أو من شفتى الشرابا

ثم تخلص من هذا الغزل الذى لايناسب مقام النبى عليه السلام تخلصاً مرذولا . فقال :

حق من كان له حب سلمى شغلا أن يستلذ العذابا

ومن يمدح خير البرايا أن يرى الفقر عطاء حسابا

وقد شبه البوصيرى نفسه بحسان بن ثابت . فقال يخاطب الرسول :

فادعنى حسان مدح وزدنى أنتى أحسنت عنه النيابا

(د) هذه الرحلة :

ولما رجع البوصيرى إلى مصر نظم تلك الهمزية المشهورة وسماها « أم القرى فى مدح خير الورى » . بدأها بمدح الرسول ثم قص علينا تفاصيل رحلته إلى الحجاز وذكر لنا كثيرا من الأماكن التى مر بها . ومنها نرى أنه سلك الطريق البرى الذى يمر بأيلة وينحدر جنوبا إلى الحجاز . ولم يذكر فى هذه القصيدة أنه ركب بحرا ثم أخذ يذكر لنا ما قام به من مناسك الحج كالسعى والطواف ورمى الجمار . ثم وصف وقوفه أمام أبواب الرسول .

واستوعب البوصيرى فى هذه القصيدة كثيراً من أخبار السيرة النبوية وناقش النصارى ورد على اليهود ، وبكى على آل البيت وأثنى على أبى بكر وعمر وعثمان ، وعدد كثيراً من مناقب هؤلاء الخلفاء وذكر جميع كبار الصحابة ولم يستثن منهم سوى عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان فإنه لم يقل فيهما شيئاً ولم يذكرهما البتة . ثم ختم هذه القصيدة بالدعاء والأستغاثة والتوسل والتضرع .

(و) طيف الرحلة :

والظاهر أن البوصيرى رأى بعد رجوعه من الحجاز بمدة من الزمن قوماً ذاهبين لأداء هذه الفريضة فتذكر رحلته التى قام بها ووقوفه أمام الضريح النبوى كما تذكر الأماكن التى مر بها فى أثناء تلك الرحلة . وأخذت الذكريات تعاوده فأشتد شوقه وعظم حنينه وسالت الدموع من مآقيه ومن هنا نفهم السر فى قوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

* * *

هل أصيب الرجل بفالج ؟

ذهب البوصيرى إلى المحلة سعياً وراء الرزق . وهناك دعاه بعض أصدقائه من بنى عرام إلى دخوله الحمام ، فزلت به قدمه وفى ذلك يقول :

كونوا معى عوناً على الأيام لا تخذلونى يا بنى عرام

إن كان يرضيكم وحاشا فضلكم ضرى لحسبى زلة الحمام

وأصبحنا بعد هذا الحادث نرى البوصيرى يشير فى قصائده إلى تلك العلة التى ألزمته داره . أما هذه العلة التى أصيب بها صاحبنا فهى كسر وليست فالجاً كما يعتقد الناس . وقد أشار البوصيرى إلى هذا الكسر بقوله :

ما ضر كم جبر الكسير وحسبه ما يبتغى فى الجبر من آلام

ومع أن الشاعر هنا يتلاعب بالألفاظ إلا أننا نستطيع أن

يدرك أنه كان مصاباً بكسر عاقه عن الحركة مدة من الزمن .

وقال :

ما حال من منع الركوب وطرفه يشكو إليه رباطه محبوسا

وفي كلمة « طرف » هنا تورية . فالطرف بمعنى مؤخر العين . والطرف بمعنى الساق وهي من أطراف الإنسان . فالبوصيري قد عجز عن الركوب لأن ساقه المكسورة كانت قد لفت عليها الأربطة والضمادات فتعذرت عليه الحركة . وعلاوة على ما تقدم فإن الفالج لا يربط . ومن هنا نستطيع أن ننفي إصابته بالفالج الذي أبطل نصفه نفياً باتاً .

وأمر آخر نستطيع أن نبطل به دعوى إصابة الرجل بالفالج ، وهو قوله :

وبليتي عرس بليت بمثلها والبعل ممقوت بغير قيام
إن زرتها في العام يوماً أنتجت وأتت لستة أشهر بغلام
أو هذه الأولاد جاءت كلها من فعل شيخ ليس بالقوام ؟

فالرجل يقول إنه مع وجود هذه العلة كان يباشر زوجته وينجب منها . فكيف تكون هذه العلة فالجاً أبطل نصفه ؟ وإذا انتهينا من هذا إلى أن البوصيري أصيب بكسر ولم يصب بفالج ، أمكننا أن ننفي تلك القصص التي نسجت حول البردة .

* * *

روى ابن شاكر عن البوصيري أنه قال : ثم انفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني وكررت انشادها وبكيت ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهي بيده المباركة وألقى علي بردة . فانتبهت ووجدت في نهضة فقمت وخرجت من بيتي ... الخ »

وروى غير ابن شاكر أن البوصيري « جاء يوماً من عند أحد السلاطين إلى بيته فصادف شيخاً مليحاً فقال له :

أنت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في المنام ؟ قال البوصيري : إني لم أر النبي في تلك الليلة . لكن امتلأ قلبي من ذلك الكلام بعشقه ومحبته عليه السلام فجئت إلى بيتي فنمت فإذا أنا رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مع الأصحاب كالشمس بين النجوم فانتبهت وقد ملىء قلبي بالمحبة والسرور ، ولم يفارق بعد ذلك من قلبي محبة ذلك النور وأنشدت في مدحه قصائد كثيرة كالمضرية والهمزية »

فهذه القصة تزعم أن البوصيري رأى النبي مع أصحابه وأن الشاعر لم يكن في ذلك الوقت مريضاً بل كان في صحة جيدة وأن هذه الرؤيا هي التي أوحت إليه بنظم مدائحه في الرسول كالمضرية والهمزية ولم يذكر شيئاً عن البردة . وقد سبق لنا أن عرفنا أن البوصيري لم ينظم من المدائح النبوية قبل الحج سوى قصائد أربعة منها قصيدة « تقديس الحرم من تدنيس الضرم » ومنها « المخرج والمردود على النصارى واليهود » . وسبق أن تتبعنا الظروف التي نظم فيها البوصيري قصائده النبوية الأخرى .

ولا نجد الشاعر قد أشار في همزيته إلى تلك الرؤيا التي تحدثنا عنها تلك الرواية فليس من المسير علينا بعد ذلك أن ننفي هذه القصة .

ثم استطرد الرواة فذكروا أن البوصيري قال « أصابني خلط فالج فأبطل نصفي وقطعني عن الحركة ففكرت أن أعمل قصيدة مشتملة على مدائح النبي صلى الله عليه وسلم وأستشفي بها من الله تعالى . فأنشدت هذه القصيدة ونمت فرأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام فمسح بيده الكريمة على أعضاء الحقير فقمت من المنام ملابساً بالعافية من الآلام . »

وهذه القصة لا تذكر لنا أن البوصيري قال بأن النبي كان يتمايل عجباً حين سماعه للبردة ، ولا إنه قال إن النبي ألقى عليه بردة . ومضى الراوي يحدث عن البوصيري أنه قال : « فخرجت من بيتي فدوة فلقيني الشيخ أبو الرجاء الصديق لي فقال لي : يا سيدي هات قصيدتك التي مدحت بها النبي عليه السلام ، والحال أني لم أكن أعلمت بها أحداً من الناس . فقلت : أي قصيدة تريد ؟ فإني مدحته عليه السلام بقصائد كثيرة . فقال : هي التي أولها

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

فقلت أين حفظتها يا أبا الرجاء ؟ وما قرأتها على أحد ممن جاء . قال : لقد سمعتها البارحة تنشدها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتمايل ويتحرك إستحساناً تحرك الأغصان المثمرة بهبوب نسيم الرياح . فأعطيته إياها فنشر الخبر بين الناس . »

وهذه القصة تمتاز عن قصة ابن شاكر بأنها ذكرت لنا اسم